

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً "

د. خالد بلعربي

جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

يحفل التاريخ الزياني بكثير من القضايا والانعطافات التي ما زالت بقعة من بقع التاريخ المنسي، فعلى الرغم من تنامي الدراسات الكثيرة في حقل التاريخ الزياني خلال هذين العقدین الأخيرین، لا تزال بعض القضايا الخاصة بهذا التاريخ بعيدة عن مناطق الضوء، ومن هذا القبیل الدور الذي كانت تضطلع به الشرطة في عهد الدولة الزيانية.

إن هذا الموضوع لم يشغل سوى مساحة قليلة في الإسطوغرافيا المغربية الوسيطية، كما أنه لم يحظ بالتفاتة علمية تذكر من قبل الباحثين والمهتمين بتاريخ بني زيان من خلال دراسته دراسة مستقلة تستوفي جميع الشروط باستثناء بعض الإشارات العابرة عنه أثناء الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية بصفة عامة، ينهض دليلاً على ذلك ما كتبه الدكتور عبد العزيز فيلالي

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً "..... د. خالد بلعربي
حول " تلمسان في العهد الزياني " ¹ وما كتبه عطاء الله دهيئة حول " المملكة العبد
الوادية في عهد أبو حمو موسى الأول وأبو تاشفين الأول " ².

قد يفسر هذا الإقصاء من دائرة اهتمامات الباحثين والمؤرخين بشح
المادة التاريخية في المقام الأول، ذلك أن المصادر التاريخية الزيانية ضربت
صفحة عن ذكر أخبار خطة صاحب الشرطة ودوره في حفظ الأمن والنظام
والآداب العامة، باستثناء إشارات شاحبة وردت بكيفية عفوية في هذه المصادر،
وقد يكون السلطان أبو حمو موسى الثاني (ت: 791هـ/ 1388م) في كتابه " واسطة
السلوك في سياسة الملوك " قد خرج عن قاعدة الإقصاء في الوصية التي دونها
لابنه من بعده عن دور صاحب الشرطة بقوله " ثم يدخل صاحب شرطتك
وحكام بلد حضرتك ليخبرك بما يريد في ليلتك، ولا يخفي عليك شيء من
أحوال رعيتك، وبلدك مع ضبط مملكته، فتسأله عن القليل والكثير والجليل
من الأمر والحقير، لئلا يتوصل أهل العناية للرعية مضرة ولا أذية، ولا يقع من
الحاكم جور في بلد ولا ظلم لأحد، فإنه إذا علم الحاكم أو غيره من أهل
العناية وأهل الدعاوى والجنايات بأن الملك، لا يغيب عنه شيء من أحوال
بلده فيمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند حدودهم " ³.

تأسيساً لهذه الملاحظات المصدرة سنحاول تناول موضوع الشرطة
ودورها في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط في فترة محددة وهي مرحلة
الزيانيين (ما بين القرنين 7-9هـ/ 13-15م) محاولين تعقب السؤالين الآتيين: كيف

¹ عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1. دار موفم للنشر والتوزيع 2002.

² عطاء الله دهيئة، المملكة العبد الوادية في عهد أبو حمو موسى الأول إلى أبو تاشفين الأول،
دمج الجزائر، (بدون تاريخ).

³ أبو حمو موسى الثاني، كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية،
تونس 1379 هـ الموافق لـ 1862 م ص 83.

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً ".....د. خالد بلعربي
كان حال الوضعية الأمنية في العهد الزياني؟ وما هو دور السلطة المركزية في
استتباب الأمن داخل ربوع الدولة؟

كانت الشرطة من النظم الإدارية التي عني بها الزيانيون، وقد ورثت
الدولة الزيانية مثل جيرانها هذه الخطة عن الموحيدين، بحيث كانت مهمة
صاحبها حفظ الأمن والنظام والآداب العامة، وتتبع الجرائم وإقامة الحدود¹؛
وقد أعطاهم الزيانيون عناية خاصة إلى جانبي الحسبة والمظالم، وكان لا يتولى
خطة صاحب الشرطة إلا من اتصف بالصلاية والحسم في الأمور الشرعية
والسياسية حسب تعبير ابن خلدون² وإذا كانت المصادر الزيانية قد سكنت عن
إفادتنا بالفترة الزمنية التي نشأت فيها هذه الخطة، فإن الأكيد أن استفحال ظاهرة
اللاأمن في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني هو الذي دفع سلاطين
بني زيان للتفكير في إنشاء خطة صاحب الشرطة حرصاً منهم على تصفية
عناصر الشر والفساد والجريمة واللصوصية داخل مدن الدولة، وإن كتب
النوازل تجيب عن كثير من التساؤلات المتعلقة بدفع الفساد وتأمين السبل
لنؤكد انعدام الأمن خلال هذه الفترة من ذلك ما يتضح من جواب الفقيه قاسم
العقباني لمرباط يستفسر عن الإقامة في مواضع كانت سابقاً بيد أهل الفساد
وذلك بقوله "الحمد لله، إن إقامة هذا المرباط بهذا الموضع... من باب إعانة
اللهفان، ودفع الفساد عن أهل الأمان، وما أعظم المثوبة في ذلك وما هذا إلا
جهاد عظيم، وشرف دائم مقيم..."³، كما كان يظهر انعدام الأمن خلال هذه

¹ الأخضر عبدلي، مملكة تلمسان في عهد بني زيان، أطروحة شهادة التعمق في البحث
المرحلة الثالثة (مرقونة) جامعة تونس ص 169 / 170.

² ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة دار الكتاب اللبناني بيروت 1967 ص 446.

³ أبو عبد الله محمد العقباني، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير
المناكر تحقيق محمد علي الشنوفي، نشر في:

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً ".....د. خالد بلعربي
 الفترة في خطر الكثير من القبائل التي كان يحترف قطاع كبير منها اللصوصية
 وقطع الطرق، ويبدو ذلك من خلال الحوادث المتكررة لهجمات أولئك
 اللصوص على قوافل التجار والمسافرين وفي نقاط مختلفة من بلاد المغرب
 الأوسط، وهذا ما جعل ظاهرة انعدام الأمن هي السائدة، ومما جاء في وصف
 العبدري للمرحلة المؤدية إلى تلمسان انطلاقاً من أراضي المغرب الأقصى
 قوله: " ولما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان، وجدنا طريقاً منقطعاً
 مخوفاً لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد، وتلك المفازة مع
 قريبا من أضرب بقاء الأرض على المسافر لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله
 وأشدهم إذابة، لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا
 مستعد يتفادون من شره، وطلائعهم أبداً على مرقب لا يخلو منها البتة"¹.

ويصف لنا أبو العباس أحمد المعروف بالمريض وهو من المغرب
 الأوسط من خلال سؤال مؤرخ سنة 796هـ/1393م إلى شيخه الفقيه أبي عبد الله
 بن عرفة ولأهمية هذا النص ارتأينا أن نبثه كما ورد مختصراً عند المازوني قائلاً
 "سيدنا أمتع الله بكم من مسألة، وهي جماعة من مغربنا من العرب تبلغ ما بين
 فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف أو تزيد ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع
 الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق... ثم مع
 ذلك لا تأمن الرفاق من جانبيهم، نصبوا الغارات على هذه البلاد التي نحن فيها،
 وقتلوا من عاجلوه وقطعوا الطرقات..."².

Bulletin d'études orientales .T.X/X (1965-1967) ص 28.

¹ العبدري البليسي محمد، الرحلة المغربية تحقيق أحمد بن جدو، مطبعة البعث قسنطينية (ب)
 ت (ص 8.

² المازوني أبو زكرياء، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج1 مخطوط رقم 1335 المكتبة
 الوطنية الجزائر، ورقة 180.

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً ".....د. خالد بلعربي

لقد هبأت ظروف القهر الاقتصادي والاجتماعي المجال أمام استفحال ظاهرة اللاأمن في ربوع بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، ومن القرائن الدالة على ذلك أن قلة المواد الغذائية الناجمة عن المجاعة التي أصابت تلمسان سنة 776هـ/1373م، اضطر ابن قنفذ القسنطيني أن يقيم في تلمسان لانعدام الأمن في المسالك والطرق بسبب هذه المجاعة¹، ويذهب ابراهيم حركات في هذا الاتجاه حين يؤكد أن قطاع الطرق واللصوص ينشطون خصوصاً في سنوات الجذب والمجاعة بسبب تفريط السلطة في اتخاذ وسائل العلاج الاقتصادية والأمنية² فخلال سنوات من حكم السلطان يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1282م) وعلى إثر حملة السلطان المريني أبي يعقوب سنة (670هـ/1270م) وحصاره لمدينة تلمسان "كثر نهب القبائل فخرجت قبائل توجين التي كانت منوثة للسلطة المركزية الفرصة وراحت تعمل للنهب والتخريب بجهات تلمسان " فقطعوا الثمار، ونسفوا الآبار، وخربوا الربوع، وأفسدوا الزروع ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة والدوم"³.

لقد عانت الدولة الزيانية من أهوال الغزو الخارجي وزعزعة الأمن لفترات تطول غالباً أكثر من فترات السلم بالنظر لكثرة الفتن والصراعات وما يتبع ذلك من أعمال تخريبية واعتداءات على الأرواح، وكانت تلمسان تعد من أهم مدن

¹ ابن قنفذ ، أنس الفقير وأعز الحقيير ، تحقيق محمد الفاسي و أودولف فور ، مطبعة أكادال الرباط 1965 ، ص 105 .

² ابراهيم حركات : المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط ، إفريقيا الشرق ، 1998 ص 260 .

³ ابن أبي زرع الفاسي علي ، الأنيس المطرب بروض القوطاس في أخبار وملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ، 1973 ص ص 131 - 132 .

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً " د. خالد بلعربي
المغرب الأوسط المعرضة باستمرار لهذه النكبات، ومما يذكر في هذا الصدد
أن السلطان المريني أبو الحسن عندما تمكن من اقتحام مدينة تلمسان في 27
رمضان سنة 737هـ/1336م وقتل السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (718-
737هـ)، انطلقت أيدي النهب على البلد فلحققت الكثير من أهله معرة في أموالهم
وحرمتهم...¹

وبالرغم من أن بعض المصادر قد وضعت المجتمع الزياني بأنه كان ينعم
بالحياة الاقتصادية الميسورة، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الفئات الاجتماعية
الأكثر حرماناً والعاطلة عن العمل من تهديد الأمن داخل مدينة تلمسان
ووصفهم أحد الباحثين المحدثين باللصوص والشحادين في أروقة المدن²،
ويرد أحد الباحثين أن ظاهرة اللصوصية وغياب الأمن داخل المجتمع التلمساني
في العهد الزياني مرده الزواج المستمر نحو العاصمة تلمسان، وقد أزعجت هذه
الظاهرة محمد بن مرزوق الخطيب فعبر عنها قائلاً: " تلمسان كثر فيها المنكر
وقل فيها الحلال"³، ويضيف بأن قاضي وإمام مسجد درب مرسى الطلبة بمدينة
تلمسان كان قد أمر بأن لا يخرج الضبي من دربه، إلا برفقه والده أو أحد أقاربه⁴
خوفاً عليه من المنحرفين والسراق وبالتالي من انعدام الأمن داخل المدينة في
بعض الأحيان.

بناء على ذلك نعتقد أن انتشار ظاهرة اللصوصية التي أدت إلى تهديد
الأمن داخل الفضاء الزياني، لم تكن سوى إفرازا للأزمات التي مرت بها

¹ ابن خلدون كتاب العبر، ج 6، طبعة بيروت، 1968، ص 536.

² ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب، المجموع، ميكروفيلم الخزائن العامة الرباط،
ورقة 19.

³ نفسه، ورقة 13.

⁴ نفسه، ورقة 4.

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً ".....د. خالد بلعربي
وانعكاساً للتمايز الاجتماعي الذي تمخض عنه بروز تناقضات اجتماعية،
وقطاعات غير قادرة على تحصيل عيشها عاجزة عن الاندماج في عملية
الإنتاج¹. أمام هذه الوضعية، ماذا فعلت الدولة الزيانية من أجل استتباب الأمن
داخل مدنها؟.

لا شك أن سلاطين بني زيان قد عينوا بإقرار الأمن داخل ربوع الدولة التي
كانوا يديرون شؤونها لمدة ما يزيد على ثلاثة قرون. ومن أجل ذلك أكثروا من
تشيد الأسوار والأبراج والقلاع ضماناً لحماية متكاثفة للمدن والضواحي²، كما
عمدوا إلى الاعتماد على الشرطة في حفظ الأمن، لقد قامت الشرطة في العهد
الزياني بدور كبير وحاسم في تطبيق الأحكام الصادرة عن القاضي وصاحب
المقالم، يظهر ذلك جلياً في عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني بحيث أكد
لابنه من بعده بالاعتناء بهذه الخطة عن طريق مساءلة صاحب الشرطة في كل
ليلة ما يقع داخل البلد من صغيرة وكبيرة حتى يتجنب الظلم والجور³ وكان أبو
حمو موسى الثاني قد قلّد هذه الخطة لموسى بن يخلف الذي كان عيناً له وعليه
في نفس الوقت فقد تواطأ مع ولي العهد أبي تاشفين الثاني على اغتيال يحيى بن
خلدون الكاتب الخاص لأبي حمو موسى الثاني⁴ وكان الولاة يقومون بمساعدة
صاحب الشرطة في تأدية مهامه لكن كان صاحب الشرطة في العهد الزياني ينظر

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، "ظاهرة التسول في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس /هـ"،
12 م "ضمن أعمال الملتقى الدولي في التاريخ حول التغيرات الاجتماعية في البلدان
المغاربية عبر العصور"، جامعة قسنطينة 23 - 24 أبريل 2001، منشورات مخبر الدراسات
التاريخية والفلسفية ص 178.

² عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج 1، ص 118.

³ أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق، ص 83.

⁴ الأخضر عبدلي، المصدر السابق، ص 223.

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً ".....د. خالد بلعربي

في أحكام الجرائم ابتداء ثم تنفيذ الحدود الخاصة بها، وكانت الحدود تطبق بصرامة كبيرة، بل إن الزيانيين جعلوا للأسواق شرطة خاصة بها ينفذ صاحبها أحكام المحتسب والقاضي في عين المكان لأن الحياة اليومية وأسعار الأسواق وما يتعلق بها من غش وأخطار لا تحتمل المسطرة القضائية¹. ومن أجل تطبيق القوانين الصادرة عن القاضي شيد بنو زيان لهذا الغرض عدة سجون حسب أنواع السجناء وطبقاتهم، وربما كان للمجرمين سجن خاص بهم وللمعتقلين السياسيين والرهائن سجنهم فالنصوص الزيانية تشير إلى وجود عدة سجون في مدينة تلمسان، واحد بالقرب من سوق السراجين²، والثاني بالقصبة³، والثالث بدويرة بقصر المشور وغيرها وكانت حماية الطرق تحظى كذلك بعناية سلاطين الدولة الزيانية، إذ كانت هناك مؤسسة جهوية كلما اقتضت الظروف إقامتها وتدعي ولاية الطريق وعملها شبيه بأعمال مؤسسة الشرطة الحديثة، ومسؤوليتها الرئيسية، المحافظة على أمن المسافرين وأمتعتهم والتدخل لردع اللصوص والقطاع وإقامة مراكز الاستقبال والتموين.

إن الشرطة في العهد الزياني قامت بدور كبير في الحفاظ على الأمن داخل الحواضر وهذا الدور الذي اضطلعت به لم يكن لو لم يحرز سلاطين بني زيان على ذلك، واكتسبت خطة صاحب الشرطة في العهد الزياني خصوصية ميزتها عما كانت عليه عند الحفصيين أو المرينيين حيث أصبحت مقننة من خلال وصية أبي حمو موسى الثاني التي يذكر فيها " فتسأله (صاحب الشرطة) عن القليل والكثير والجليل من الأمر والحقير... لئلا يتوصل أهل العناية من

¹ ابن مرزوق، المجموع، ورقة 23.

² ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 215.

³ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق عبد الرحمان طالب، د م ج

الجزائر، 1986، ص 28

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط " العهد الزياني نموذجاً ".....د. خالد بلعربي
للرعية مضرّة ولا أدية...) وبهذا يكون السلطان أبو حمو قد أكد ضرورة مساءلة
صاحب الشرطة فيما يقع من أحداث داخل الدولة ووجوب اتخاذ جميع التدابير
من أجل الحفاظ على الأمن حتى لا يلحق بالرعية أي أذى، وبالتالي جعل من
خطة صاحب الشرطة مسألة خاصة بالرعية.

لهذا اضطلعت الدولة الزيانية بمهمة حفظ الأمن داخل مدنها، وكان
إصرارها كبيراً في ذلك، وربما يأتي هذا الحرص منها، لأن قضية الأمن ظلت
تشكل هاجس السلطة في بلاد المغرب الأوسط، لقد قام بنو زيان بتوفير كل
وسائل الراحة والاطمئنان بالنسبة لسكان الدولة فتمكنوا من حماية الطرق
التجارية، وإقرار الأمن داخل ربوع الدولة رغم ما كانت تتعرض له هذه الدولة
من محاولات لزعة الأمن بداخلها، وبفضل السياسة الأمنية التي طبقها حكام
بنو زيان فإن الدولة الزيانية كما يقول الأستاذ عبد الحميد حاجيات ظلت تنمو
وتزدهر حتى دب فيها الضعف في القرن التاسع والعاشر الهجريين¹.

¹ عبد الحميد حاجيات، المسالك والدروب في المغرب الأوسط، المجلة العربية للثقافة
الأسكوا، العدد 5، تونس، 1983، ص 89.

علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي

أ. مفتاح خلقات

جامعة محمد بوضياف المسيلة

شكل تواجد القلعين الذين توافدوا على بجاية،⁽¹⁾ سنداً ودعماً للنهضة الفكرية، التي أسس لها الحماديون، بما وفروه من كتابات ومسااجد⁽²⁾ أثرت

(1) أرجعت النصوص التاريخية أن فكرة بناء بجاية كان تحت تأثير دخول الهلاليين إلى بلاد المغرب، صحيح أن المصادر لم تشر إلى اكتساحهم للقلعة - لحصانتها الطبيعية - إلا أنها بالمقابل أفاضت بالحديث عن إفسادهم وضروهم بالقبائل المحيطة بها في كل من طينة والمسيلة، وقد انعكس ذلك سلباً على المناخ السياسي العام بشيوع الفوضى وانعدام الأمن لاسيما مع انتشار ظاهرة اللصوصية وقطاع الطرق الذين أحكموا سيطرتهم على مسالك التجارة، هذا إلى جانب ما كان يقدمه الأمراء والملوك من الإتاوات إلى شيوخ القبائل الهلالية نظير إعطائهم حق التصرف في أوطانهم على حد تعبير ابن خلدون، ولعل أبرز معالم التحول الذي عرفه المغرب الأوسط بعد الهجرة الهلالية بعد منتصف القرن 11/12م هو الاختلال الحاصل في عملية التوازن الديموغرافي بين الداخل والساحل من جهة، وبين المدينة والريف من جهة أخرى، لذا لم يعد من الممكن أن يستمر وجود القلعة التي عانت من اختناق كبير نتيجة حركة التوطن الهلالي، الذي شمل فضاء جغرافياً واسعاً في محيط المدينة، يضاف إلى ذلك أن الهلاليين أنفسهم لم تكن لهم القدرة على تقبل فكرة السلطة أو سيادة الدولة المركزية بحكم طابع البداوة والانتجاع التي تميزوا بها؛ أنظر: ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 24-193؛ صالح بعزيق: بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية: منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2006، ص 54-55.

علماء زاووة والإرث الثقافي القلعي.....أ. مفتاح خلفات
الساحة الثقافية وحولت المدينة إلى منارة للعلم يقصدها الطلاب من كل
النواحي، لاسيما من منطقة زاووة المحيطة بباديتها، كما أثمرت سياسة ملوك
بني حماد في توطن العديد من القبائل الصنهاجية التي ساعدت كثيرا في إعمار
المدينة.

بجاية: دار زاووة

تجمع النصوص التاريخية أنه بعد انتقال الناصر بن علناس (454-
481هـ/1062-1088م) إلى عاصمته الجديدة بجاية سنة 461هـ/1069م بادر أول الأمر
إلى إسقاط المكوس والمغارم على سكانها رغبة منه في استقطاب القبائل
المحيطة بها من جهة، ولتعزيز نفوذه وسلطانه من جهة أخرى، تأسيسا بسلفه
حماد (408/419هـ) عندما نقل إلى القلعة سنة 398هـ/1007م سكان جراوة والمسيلة
وحمزة وأسكنهم بها،⁽²⁾ ذلك أن إعمار المدن لا بد أن يكون من ضواحي تلك
المدينة وما قاربها من الجبال والبساتن على حد تعبير ابن خلدون،⁽³⁾ ولقد أثمر
هذا الامتياز الجبائي بنزوح عدد من الأسر الزاوية من بني غبرين وبني عيسى
ومشالة،⁽⁴⁾ لاسيما وأن تخطيط المدينة كان بساحتهم⁽¹⁾ مما خلق نوعا من

(1) ذكر منها الغبريني المسجد الأعظم، القصبة، النطايعين، الإمام المهدي، المرجاني، العين
الجزيري (عين البربر)؛ عنوان الدراية، ص 91-161-165.

(2) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر، مج 6، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ص 202.

(3) ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص 250.

(4) ومن القرائن التي تعزز هذا الطرح ما ساقه الغبريني في عنوانه من تراجم لأسر من زاووة
التي توطنت بجاية كما هو الشأن بالنسبة لأبي زكريا يحيى الزواوي، وهلال الغبريني، وأسرة
ناصر الدين المشدائي (ت 731هـ/1332م) التي سكنت بمشالة؛ أنظر: الغبريني: عنوان الدراية
فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تع: رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر
والتوزيع، 1981، ص 133-135-141-142-200-216-226-268.

علماء زراوة والإرث الثقافي القلعي..... 1. مفتاح خلفات
ديناميكية الترابط والاندماج لعناصر قبيلة في مجتمع المدينة، هذا إلى جانب من
هاجر إليها من أهل المسيلة والقلعة، يؤيد هذا ما أشار إليه الإدريسي بأن بجاية
عمرت بعد خراب القلعة. (2)

وقد أكد ابن خلدون على هذا النزوح في معرض حديثه عن ثورة الدعي أبي
عمارة قوله: "وكان من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة"، (3) وقد ربط
هذا الأخير بين مرحلة تأسيس الدولة وإسقاط المغارم قوله: "اعلم أن الدولة في
أولها تكون بدوية فيكون خُلُق الرفق بالرعية والقصد من النفقات فلا تحتاج
الدولة لكثرة المال". (4)

لكن الملاحظ أن عملية النزوح بالنسبة لقبائل زواوة كانت في بادئ الأمر
طوعية، ذلك أن غاية عدد من العناصر الريفية هو التمدن والتحضّر، وربما سعى
إلى قيادة المدينة على رأي ابن خلدون (5) الذي يضيف بأن هؤلاء البدو
النازحون ينزلون المدن والأمصار ويتأهلون، بمعنى أن استقرارهم كان يهدف
إلى التأهيل باختيار مهنة معينة لمساعدتهم على العيش، (6) غير أن ملامح التحول
الاقتصادي الذي صارت إليه بجاية غير من السياسة الجبائية، فكمّاشة النفقات
على البناء والتأثّق في اتخاذ القصور إلى جانب ما كانت تحتاجه الدول من
أموال لتجهيز الجيوش المحاربة ضد زناة وصنهاجة، أجبرت أمراء بني حماد

(1) ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 152.

(2) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح: محمد الحاج الصادق، المغرب العربي من كتاب
نزهة المشتاق، الجزائر، 1983، ص 111.

(3) العبر: مج 6، ص 388.

(4) المقدمة: ص 219 - 221.

(5) نفسه، ص 97 - 98.

(6) ابن خلدون: المقدمة، ص 270.

علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي..... أ. مفتاح خلفات
إلى إثقال كاهل الرعية والقبائل بما يفرضونه من ضرائب ومكوس، التي كانت لها تداعيات خطيرة انعكست سلباً على العلاقة بين السلطة المركزية والقبائل المحيطة بها وهو ما يفسر لنا ظاهرة التمرد والعصيان والخروج عن السلطان الذي تبنته قبائل زواوة، ومع ذلك فإن استطاع الناصر بن علناس وابنه المنصور من فرض هيبة الدولة بتطويع هذه القبائل وإدخالها إسمياً في النظام العام ومؤسساته، وحسبنا دليلاً على ذلك ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: "فانقادوا لهم وأذعنوا"⁽¹⁾.

ونخلص مما سبق إلى نتيجتين هامتين هما:

الأولى: أن ما يقال على عملية النزوح القبلي من الريف إلى المدينة سواء كان طوعية أو إجبارية إلا أنها شكلت رافداً في تقوية النسيج العمراني، ونمو الحركة الديموغرافية ببجاية وهو ما أكدته ابن خلدون "وصارت بجاية دار زواوة"⁽²⁾ أي الحديث عن تجذر قبلي داخل المدينة ونسيجها العمراني.

الثانية: أنه كان من ثمار هذه السياسة أيضاً وتقديراً لجهود كل من الناصر وابنه المنصور، ويمكن القول أنهما أوجدا مساحة للتلاقح بين مختلف العناصر الاجتماعية والطوائف المهنية (علماء- تجار- حرفيين) عامة وطلبة العلم من الزواويين وعلماء القلعة على وجه الخصوص، والسؤال المطروح: كيف ساعد القلعين في تأطير نخبة علماء زواوة والتي عكست في مضمونها أنموذجاً لروح التكامل والتفاعل بين المدينة والبادية؟

الواقع أن الإجابة عن هذا السؤال تحيلنا بضرورة العودة إلى كتب التراجم التي اهتمت بموضوع الحياة الفكرية ببجاية على غرار ما وفره الغبريني في

(1) العبر: مج6، ص152.

(2) نفسه: ص120.

علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي.....1. مفتاح خلفات
عنوانه من -تراجم- لعلماء ساهموا في تأطير الحياة الثقافية بهذه المدينة، منهم
على وجه الخصوص علماء القلعة الذين تتلمذ على أيديهم نخبة من العلماء
الزواويين ويأتي في مقدمة هؤلاء: (1)

أبو زكرياء يحيى الزواوي (ت 1210/611م) الذي لم يكتف بما حصله من
العلوم ببجاية وآثر الانتقال إلى قلعة بني حماد⁽²⁾ وجلس إلى فقيها ابن
الخراط⁽³⁾ الذي كان أحد الفقهاء البارزين في زمنه، ومثله أيضا أبي العباس
الغبريني (ت 1304/704م)⁽⁴⁾ الذي استوطن المدينة فدرس علوم الحديث والفقه

(1) نذكر من بين هؤلاء أبو عبد محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي، أبو عبد الله
محمد بن حسن القلعي؛ أنظر الغبريني: المصدر السابق، ص 93-94-140.
(2) يذكر الغبريني أن الناصر بن علناس رغم أنه انتقل إلى بجاية إلا أنه بقي يتردد على
القلعة، وأن ابنه المنصور لم يغادرها إلا في حدود سنة 483هـ مما يعطي الدليل على أن القلعة
حافظت على مكانتها السياسية كعاصمة ثانية للدولة الحمادية، وهذا ما يفند تخريجات بعض
الباحثين الذين أشاروا إلى خرابها على يد الأعراب الهلالية لأن "القلعة" رغم أنها فقدت
مكانتها السياسية كعاصمة للدولة بدءا من سنة 483هـ/1090م إلا أنها حافظت على رصيدها
الفكري والخضاري وشكلت رافدا قويا في إمداد بجاية بنخبة من الأعلام، يؤيد هذا ما ذكره
ابن خلدون بأنها كانت مقصد لطلاب العلم من البلاد القاصية، فحافظت بذلك على مكانتها
كحاضرة علمية وربما لهذا السبب اختارها أبو الفضل النحوي التوزري موطننا وفضاء
لممارسة طقوسه الصوفية إلى أن توفي بها سنة 513هـ/1110م؛ الغبريني: المصدر السابق،
ص 7.

(3) نفسه، ص 183.

(4) ورد في تعليق محمد مسعود جبران محقق كتاب سبك المقال لفك العقال، لابن الطواح،
ص 201 الهامش رقم 2، أن أبا العباس الغبريني توفي سنة (714هـ/1314م) بدء الطاعون لكن
الحقيقة كما أجمعت جل المصادر التاريخية أن هذا الأخير قتل سنة 704هـ/1304م بعد أن
وشى به أعداءه لدى السلطان أبي البقاء بتهمة أنه داخل سلطان الحضرة (أي إفريقية) في أمر
دخوله إلى بجاية فكلف منصور التركي بقتله في محبسه؛ أنظر ابن خلدون: مج 6، ص 405؛
مجلة الآداب.....49..... العدد 10

علماء زواوة والإرث الشعافي القلعي.....أ. مفتاح خلفات
على يد شيخه أبي محمد عبد الله بن محمد بن عمارة القلعي⁽¹⁾ وانتفع من ابن
ميمون التميمي (ت 673هـ/1272م) في علوم اللغة وقد أشاد ببراعة شيخه في هذا
الفن.⁽²⁾

ولعل من أبرز صور التلاقح الفكري والتأثير العلمي بين علماء القلعة وزواوة
أن أبا زكريا يحيى الزواوي (ت 611هـ/1214م) درس لبعض أبناء القلعيين وهو أبو
العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الذي يذكر الغبريني بشأنه أنه كان ملازماً له،
عاكفاً عليه، وقارناً بين يديه.⁽³⁾

وفي نفس السياق دلت تراجم هذه المرحلة ما أسهم به علماء القلعة
بعطاءاتهم الفكرية في شتى فنون المعرفة كأبي عبد الله بن محمد بن بكر
المنصور القلعي الذي قطع الغبريني أنه لم يكن يبعجا في وقته أحدا يريد قراءة
علم الفرائض إلا ويقصد مجلسه العلمي،⁽⁴⁾ ووصف أبي عبد الله بن حماد بأنه
أوحد عصره في علم القراءات ورواية الحديث، فمن ظفر بإجازته فقد حصل
على الغاية القصوى، يؤيد هذا ما ذكره الغبريني قوله: "ما أدرت من الطلبة إلا

الوادي آشي: البرنامج تع: محفوظ في دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص 11 ؛
النباهي: تاريخ قضاة الأندلس "المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"، دار الآفاق
الجديدة، بيروت، لبنان، ص 132.

(1) الغبريني: المصدر السابق، ص 93.

(2) نفسه، ص 94.

(3) نفسه، ص 265.

(4) نفسه، ص 237.

علماء زاوية والإرث الثقافي القلعي..... أ. مفتاح خلفات
وهم يفخرون بلقائه والقراءة عليه⁽¹⁾ كما أن أبي عبد الله محمد بن صمغان
القلعي خص سقيفة في بيته خواص طلبته⁽²⁾.

وفضلا عن الجهود التي بذلها علماء القلعة في الإزدهار العلمي لبجاية كان
لبعض مؤلفاتهم كتلك التي صنفها أبي علي المسيلي (توفي أواخر القرن
السادس هجري) دورها ازدهار العلوم منها كتاب "التذكرة" في أصول علوم
الدين وكتاب "النبراس في الرد على منكر القياس" وكتاب "التفكر فيما تشتمل
عليه السور والآيات من المبادئ والغايات" انتفع بها عدد من علماء زاوية منهم
أبي العباس الغبريني الذي وصفها بأنها من أجل الموضوعات بما احتوته من
معارف وأن كلامه في كتاب "التفكر" أحسن مما ذكره أبي حامد الغزالي، وقد
أحاط فيه بعلم المنقول والمعقول وعلم الظاهر والباطن، واعتنى به طلبية بجاية
ولقب مؤلفه بأبي حامد الصغير⁽³⁾.

والجدير بالذكر في هذا الباب أن نخبة من أعلام زاوية الدين استوطنوا بلاد
المشرق ممن حفظت المصادر التاريخية أسماءهم لاسيما في الفترة الممتدة ما
بين القرن السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر ميلاديين،
وسواء منهم الذين دخلوا بلاد الشام ومصر، أو جاوروا الحرم المكي والمديني،
تلقوا تعليمهم أول الأمر على يد علماء بلدهم ويقصدون بذلك مدينة بجاية.

صحيح إننا لا نملك من النصوص بما يفيد أنهم تتلمذوا على يد علماء
قلعيين لكن المؤكد أنهم أخذوا عن تلامذتهم الذين يمكن اعتبارهم كوسائط
لانتقال المعرفة، وحسبي دليلا في ذلك ما أشار إليه الغبريني أن سند تعليمه

(1) نفسه، ص 265.

(2) نفسه، ص 189.

(3) نفسه، ص - 69.

علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي..... أ. مفتاح خلفات
يتصل بأبي علي المسيلي عن طريق - أبي عبد الله الكناني وأبي محمد بن برطلة
عن الشيخ أبي عبد الله بن حماد عن القاضي أبي علي المسيلي -⁽¹⁾ ومن بين
هؤلاء ابن معطي الزواوي (ت 1238/هـ 628م) الذي أخذ العلم عن مشايخ بلده⁽²⁾
ثم انتقل إلى مصر وسكن دمشق فأخذ عن أعلامها ثم جلس لإقراء النحو،
فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم،⁽³⁾ وزين الدين الزواوي (ت 1281/هـ 681م)
الذي كان أول من تصدر للقضاء المالكي بدمشق سنة 1270/هـ 664م⁽⁴⁾ وخلفه بعد
اعتزاله ابن عمه جمال الدين الزواوي (ت 1318/هـ 718م) وغيرهم من الأعلام ممن

(1) الغبريني: المصادر السابق، ص 265.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج 6، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 197.

(3) السيوطي: حسن لمحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج 1، ص 437.

(4) ابن طولون: الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تح: صلاح الدين المنجد، دمشق، سوريا، 1956، ص 56؛ لم يكن القضاء على المذهب المالكي قد عرف في بلاد الشام في فترة حكم الزنكيين والأيوبيين كما كان الحال بالنسبة للمذاهب الأخرى (الشافعية، الحنفية، الحنبلية) ومرد ذلك يعود أساساً إلى ندرة العاملين في هذا المذهب، لكن ظهوره ارتبط مع ارتفاع عدد الوافدين من المغاربة والأندلسيين الذين استوطنوا أرض الشام باعتبار أن غالبية هؤلاء كانوا من المالكية، والمؤكد أن اعتماد قاضي مالكي لم يؤخذ بصورة رسمية إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وبوشر العمل به رسمياً في دمشق سنة 1265/هـ 664م وتبع ذلك في سائر المدن الشامية، ومع ذلك فإنهم غلبوا عن قضاء العسكر الذي اقتصر على قاضيين واحد من الشافعية وآخر من الحنفية، أنظر: علي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية التاسع الهجري، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1989، ص 224 وما بعدها؛ إبراهيم زعرور: "القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك"، مجلة الدراسات التاريخية، 53 و 54، (1995)، ص 61 وما بعدها.

علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي.....أ. مفتاح خلفات
أسهموا بجهود رائدة في الحياة الفكرية لحواضر المشرق من جهة، وفي تطعيم
مسار نهضة المذهب المالكي من جهة أخرى.⁽¹⁾

وبناء على ما تقدم فإن كل هذه القرائن تعكس بوضوح الجهود المعتبرة التي
بذلها علماء القلعة في حركة الازدهار العلمي الذي بلغته ببجاية، التي تحولت
مع مرور الزمن إلى حاضرة علمية وقاعدة اقتصادية لكثير من الأمصار،⁽²⁾
ونستنتج من حصاد ما سبق أن الإرث العلمي القلعي لم يتوقف بنهاية الدور
التاريخي لقلعة بني حماد وإنما تواصل عن طريق تدريس مؤلفات ومرويات
علمائها ببجاية، استفاد منها عدد من الطلبة الزواويين الذين زاولوا الدراسة في
العاصمة الثانية للحماديين أو حتى من رحل منهم إلى بلاد المشرق.

(1) ابن كثير: مج 13، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1988، ص 312.

(2) الإدريسي: المصنوع السابق، ص 116.

